التفسير في نهج البلاغة

كاصد الزيدي

ماجستير في الآداب « الدراسات القرآنية »

حفل نهج البلاغة بألوان من الفنون الادبية ، والعلوم الدينية . ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بجلاء فيه . ومن هذه العلوم ذات السمة الدينية « علم التفسير » ، الذي يعد الامام عليه السلام بحق من أوائل المهتمين به ، ومن الصحابة المقدمين الذين روي عنهم معاني كتاب الله الكريم[1] بثقة واطمئنان كبيرين .

والتفسير في هذا الكتاب القيم ، وان لم يكن غرضاً مقصوداً لذاته ، الا أنه يمكن أن يرى من خلال تعبيراته ، ويتبين من ثنايا خطبه وكلماته . فيكون بذلك فضلا عن شهرته الادبية البلاغية ، مصدراً من مصادر التفسير القرآني ، في أولى مراحله ، يلقي أضواء على كثير من آي الكتاب العزيز ، فيكشف عن معانيها ، ويحدد مفهومات ألفاظها ، ومدلولات تراكيبها .

ونستطيع أن نتبين من خلال هذا التفسير الذي ضمه كتاب النهج ، منهجاً متميزاً ذا معالم واضحة للامام في تفسير الكتاب المبين ، وتبيان معانيه ، وهذا المنهج يتناول في خطوطه الاساسية مسائل متنوعة أبينها :

---

(١) ينظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٥٧/٢ بتحقيق أبي الفضل ابراهيم .

مصدر علم الامام في التفسير ، وجهوده فيه :

ينص نهج البلاغة على أن علم الامام في التفسير ، كان مصدره النبي (ص) ، ويتبين منه أن الامام عليه السلام كان تلميذاً ممتازاً لرسول الرحمة والهداية ، يتلقى عنه ما ينطق به من تفسير للآي ، في وعي دائم ، واهتمام شديد ، ويقظة تامة . فيحفظ ذلك عنه ويعيه . وقد مهد له سبل النجاح ، طول ملازمته له ، وتعلقه به ، وكلفه في أن يتعلم منه ، ويأخذ عنه ، منذ أن كان يافعاً حتى صار رجلا ، ناهيك عن الفطرة السليمة ، والروح النقية المفتحة ، والعناية الخاصة التي يوليها اياه رسول الله (ص). فكان لذلك تحوطه النفحات الربانية ، وهو في بيت النبوة الطاهر ، بذلك النور الدافق ، والفكر الرائق .

وقد حدث الامام عن هذا الموضوع ، موضوع أخذه التفسير عن رسول الله (ص) في احدى كلماته فقال :

« وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه ، حتى ان كانوا ليحبون أن يجيء الاعرابي والطارىء ، فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا . وكان لا يمر بي من ذلك شيء الا سألت عنه وحفظته .. »[٢] .

وأيضا ، فان في نهج البلاغة اشارة الى جهود الامام في تعليم التفسير ونشره بين المسلمين . ولابد أن يكون الامر كذلك ، فان ايصاء الامام المسلمين بالالتزام بكتاب الله والعناية به والسير على هديه ، أمر يلحظ في مواضع كثيرة من خطبه وكلماته[٣] . والقرآن كما فهمه المسلمون الاوائل

---

(٢) نهج البلاغة : شرح الامام محمد عبده ٢/٢١٦ .

(٣) فمن مثله قوله الى الحارث الهمداني : « استمسك بحبل القرآن واستنصحه واحل حلاله وحرم حرامه » : ٣/١٤١ من شرح محمد عبده . وانظر غيره أيضا في : ٢/٢٣ و ٢/١٣٣ .. من المصدر نفسه.

لم ينزل ليقرأ فحسب ، بل ليفهم ويتدبر ويعمل به ، فمن المعقول اذاً أن يكون اهتمام الامام بتفسيره صنو اهتمامه بالعمل به ، واقتفاء أثره .

أما ذكر هذا التعليم والمدارسة القرآنية ، فقد ورد في أحدى خطبه التي يلوم فيها أصحابه ، فيقول :

« قد دارستكم القرآن ، وفاتحتكم الحجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم ، وسوغتكم ما مججتم ، لو كان الأعمى يلحظ ، أو النائم يستيقظ .. »[٤].

قال الاستاذ الامام محمد عبده في شرحه لعبارة : « قد دارستكم الكتاب » « أي قرأت عليكم القرآن تعليماً وتفهيماً »[٥] .

مفهوم التفسير والتأويل :

وقد عبر في نهج البلاغة عن تبيان معاني القرآن والكشف عنها ، تارة « بالتفسير » وأخرى « بالتأويل » ، ولكل تعبير حده ومفهومه :

(أ) فقد ورد ذكر « التفسير » في احدى خطب الامام اذ يصف المؤمنين وحالهم عند حلول الفتن ونزول المحن والتي جاء فيها قوله : « .. تجلى بالتنزيل أبصارهم ، ويرمى بالتفسير في مسامعهم »[٦] فاذا تأملنا في هذا النص وجدنا أن مفهوم التفسير فيه لا يكتفي بالكشف عن معاني القرآن بحسب اللغة العربية ودلالات ألفاظها وتراكيبها فحسب ، بل انه يتناول نوعاً خاصاً منه يمكن أن نطلق عليه اسم « التفسير الالهامي » ، وهو ذلك النوع من التفسير الذي يقذف به الله سبحانه في قلوب المؤمنين ، فينكشف لها من معاني الكتاب الحكيم ومراميه ، ما كان خافياً عليها وعلى

---

(٤) ١٢٢/٢ من شرح محمد عبده .

(٥) المصدر نفسه : المكان نفسه .

(٦) ٤٧/٢ من شرح محمد عبده .

غيرها . ولابد أن يكون هذا التفسير خاصاً بالصفوة المختارة التي يجتبيها الله سبحانه في كل عصر ومصر ، لتكون مناراً للناس في تبيان معاني كتاب الله المبين(*) .

ولعل هذا ايضا يرمز الى ما يسمى بالتفسير « الباطن » يقول الدكتور محمد حسين الذهبي وهو يتحدث عن هذا النوع من التفسير :

« .. أما المعنى الباطن ، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الانسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير .. »(٧) .

(ب) وقد يعبر عن التفسير في نهج البلاغة بلفظة « التأويل » كالذي ورد في وصية الامام لابنه الحسن عليهما السلام اذ يقول : « .. وأن استدلك بتعليم كتاب الله وتأويله » ، ولا يراد به في هذه الحال التعسف في الكشف عن معاني القرآن ، بل قد يراد به الاستنباط ، والافصاح عما انغلق من المعنى(٨) ، فهو صرف اللفظ الى ما يؤول اليه ، فكأن المفسر ناقل والمؤول مستنبط ، وذلك كاستنباط الاحكام ، وبيان المجمل ، وتخصيص العموم وأمثال ذلك(٩) . وبعبارة اخرى ان في التأويل قدراً من الاجتهاد الا أنه مبني على شواهد وأدلة معتبرة كافية . ولهذا فانه مقصور على أهل العلم ومجتهدي الامة ولا يجوز لغير هؤلاء ممارسته أو ادعاءه . وقد ندب اليه

(*) قال الزركشي في (البرهان) : « اللطائف والحقائق لا يفهمها الا من ألقى السمع وهو شهيد » ٢/١٥٣ .

(٧) ينظر مقال الدكتور الذهبي : في مجلة « الوعي الاسلامي » العدد ٧٦ لسنة ٧١ ص٤٣ .

(٨) ينظر : الزركشي : البرهان ٢/١٥٠ لمعرفة المراد بالتأويل وما قاله العلماء في مفهومه عند كلامهم على الفرق بين التفسير والتأويل .

(٩) ينظر الفرق بين المفسر والمؤول أيضا في البرهان ٢/١٦٦ .

القرآن الكريم بقوله : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » النساء : ٨٣ ولفظة « التأويل » بهذا المعنى ، متعارف عليها في مصنفات قدامى المفسرين ، وبخاصة الطبري الذي يكثر من ايراد هذه اللفظة في مواضع كثيرة من تفسيره الضخم .

وقد أوردها جملة منهم في أسماء تفاسيرهم ، كأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره القيم : « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل » ، وكأبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي في تفسيره المشهور بتفسير النسفي ، وكان قد سماه كما أوضح ذلك في مقدمته : « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » ..

(ح) و « للتأويل » في نهج البلاغة مفهوم آخر مباين لمفهومه السابق، وهو صرف معاني القرآن الى غير ما هي له ، وحملها على الرأي والهوى وعلى ما يعتقده المرء ويريده . وذلك مالا يرتضيه العلماء ولا يقبله الاتقياء . وهو التأويل المخالف للشرع على حد تعبير الزركشي في برهانه[١٠] . فهو محظور لانه تأويل الجاهلين .

وقد ورد ذكر هذا النوع من التأويل الذي ذمه الامام ورأى فيه زيفاً عن السبيل القويمة في الكشف عن معاني كتاب الله ، في كتاب بعث به الى بعضهم يقول فيه :

« .. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل أحدنا حجة على الآخر، فعدوت على الدنيا بتأويل القرآن ، فطلبتني بمالم تجن يدي ولا لساني ، وعصبته أنت وأهل الشام بي ... »[١٢] .

---

(١٠) ٢/١٥٢ .

(١١) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

(١٢) ٣/١٢٣-١٢٤ من شرح محمد عبده .

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله في شرحه :

« وتأويل القرآن صرف قوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص » و « لكم في القصاص حياة » ، وتحويله الى غير معناه ، حيث أقنع أهل الشام أن هذا النص يخول معاوية الحق في الطلب بدم عثمان أمير المؤمنين »[١٣] .

أنواع التفسير :

والتفسير في نهج البلاغة نوعان رئيسان : ما يتناول « المفردات » ، ويشمل « غريب القرآن » و « مبهماته » . وما يتناول التراكيب والعبارات والآيات . ولابد من بيان ذلك بشيء من التفصيل :

(١) تفسير المفردات :

(أ) تفسير الغريب : يقصد بالغريب ما يحتاج من المفردات القرآنية الى شرح وتفسير . وقد عني به المهتمون بالدراسات القرآنية قديماً وحديثاً ، فألفوا فيه الكتب . ومن أشهرهم الراغب الاصفهاني ومحمد بن عزيز السجستاني ، ولهذا النوع من التفسير ، بوادر تلحظ في نهج البلاغة ، كتفسير لفظتي « العدل » و « الاحسان » الواردتين في قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان .. »[١٤] : « بالانصاف » و « التفضل »[١٥] .

---

(١٣) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

(١٤) النحل : ٩٠

(١٥) ٣/٢٠٤ من شرح محمد عبده .

وكتفسير « العاكف » : بالمقيم ، و « البادي » : بالذي يحج البيت من غير أهله[١٦] • في قوله تعالى : « سواء العاكف فيه والباد »[١٧] •

(ب) تفسير المبهمات : وتزداد الفائدة عمقاً حين يعمل نهج البلاغة على الكشف عن « مبهم » من « مبهمات القرآن[*] » وتحديد معناه • وبيان المراد منه ، فيضع أيدينا على ما يصبو اليه المفسر عادة من ايجاد الدليل المطمئن لهذا التحديد ، وهذا البيان •

فاذا علمنا أن المبهمات القرآنية كثيراً ما تتشعب الاقوال في ماهيتها ، وتتضارب في المراد منها ، حتى انها قد تشوبها الاسرائيليات والنصرانيات والروايات الضعيفة والمختلقة ، تبين لنا الى أي مدى تسهم الرواية الموثوقة في وضع حد لهذه التشعبات والتكهنات ، وايجاد الاطمئنان في تفسير المبهم القرآني • مع العلم بأن القطع في ماهية المبهمات القرآنية لا يجوز ـ بحسب أصول التفسير وقواعده ـ الا بدليل قطعي من كتاب أو سنة •

---

(١٦) ٣/١٤٠ من المصدر نفسه •

(١٧) الحج : ٢٥

(*) يراد « بمبهمات القرآن » : اسماء الاشخاص والاشياء التي وردت في القرآن مبهمة دون توضيح أو تبيين ، كما في اصطلاح المفسرين والمعنيين بالدراسات القرآنية • وهي كثيرة فمن مثلها : « قربان ابني آدم » مانوعه ؟ • « وبعض بقرة بني اسرائيل » ما هو ؟ • و « الذي مر على قرية » من هو ؟ • وكذلك صاحب موسى الذي آتاه الله علما ، والشيخ الكبير الذي تزوج موسى ابنته ، وطيور ابراهيم الاربعة اللاتي أحياهن الله آية له وطمأنينة •• وغير ذلك كثير • وقد ألف في هذه المبهمات كتب أشهرها كتاب العالم الاندلسي عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي المتوفى سنة ٥٨١هـ ، وعنوانه : « التعريف والاعلام فيما أبهم من القرآن من الاسماء والاعلام » • وكتاب جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ • : « مفحمات الاقران في مبهمات القرآن » •

ونهج البلاغة حين يعضد وجهاً من تلك الوجوه التي قيلت في المبهم القرآني ، فانما يسهم اسهاماً حسناً في موضوع تفسير المبهمات القرآنية وتبيينها ، ذلك الموضوع الذي يحتاج الى مزيد من الدعم والقاء الضوء الكاشف المنبىء عن المقصود وابعاد ما هو طارىء على النص القرآني من تأويلات وأقوال لا تسوغ .

فاذا أخذنا بنظر الاعتبار كون الامام عليه السلام لم يكن عاملا بالرأي في تفسير كتاب الله(*) ، وبيان معانيه ومراميه ، من غير شاهد أو دليل . بل هو يصدر في تفسيره له عن علم موثوق وحجة ثبتة ، مصدرها رسول الله (ص) فيكون قوله الثابت عنه عندئذ حجة يمكن الاخذ بها بثبات في تفسير المبهم القرآني وتحديد المراد منه . وهذا يسري في الحقيقة الى كل ما صح عنه من تفسير .

ومما ورد في نهج البلاغة من تبيين للمبهم القرآني ، تفسيره لفظة « الخير » الواردة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : « ربّ اني لما انزلت الي من خير فقير »[18] : « بالخبز » ، وذلك في كلام للامام بليغ يقول فيه :

« .. وان شئت ثنيت بموسى كليم الله صلى الله عليه وآله اذ يقول : « ربي اني لما أنزلت الى من خير فقير » ، والله ما سأله الا خبزاً يأكله ، لأنه كان يأكل بقلة الارض »[19] .

(*) وان كان هذا لا يمنع بالطبع من « الاستنباط » وقد ذكرنا توثيق القرآن له في كلام سابق . الا أنه لا مجال للاستنباط في مثل المبهمات القرآنية .

(١٨) القصص : ٢٤

(١٩) ٢/٧٣ من شرح محمد عبده .

ومنه ما ورد في خطبته التي وصى بها أصحابه بأداء الامانة بعد توصيته اياهم بالصلاة والزكاة اذ يقول :

« ... ثم أداء الامانة ، فقد خاب من ليس من اهلها ، انها عرضت على السموات المبنية والأرضين المدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها . ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن . ولكن أشفقن من العقوبة ، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الانسان . « انه كان ظلوماً جهولا »[٢٠] .

فهو يذكر « الأمانة » ، ويبين أنها عرضت على السموات والارض والجبال ليحملنها ويرتضين أداءها ، فأشفقن من حملها ، وخفن من عاقبة قبولها ، وقبلها الانسان طائعاً جهلا منه وغروراً . وذلك كله تفسير وتبيين لما ورد في قوله تعالى :

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا »[٢١] . وفوق ذلك كله فهو يحدد مفهوم « الأمانة » التي اختلف المفسرون في المراد منها اختلافاً ، وتباينوا في ماهيتها تبايناً ؛ فقد روي عن حبر الامة ابن عباس أنها « الطاعة لله » وهو ما اختاره الزمخشري في تفسيره اذ قال : « وهو برد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخم شأنها »[٢٢] . وقال قوم من المفسرين هي « العقل » ، ذكر ذلك الطبري في تفسيره . وقيل هي ما خلق الله تعالى في هذه الاشياء من الدلائل على ربوبيته وظهور ذلك منها[٢٣] . وقيل هي :

---

(٢٠) ٢٠٥/٢ من المصدر نفسه .
(٢١) الاحزاب : ٧٢ .
(٢٢) الكشاف ٥٥١/٣ .
(٢٣) الطوسي : التبيان ٣٦٧/١ . طبعة النجف .

« الاحكام والفرائض »[٢٤] . وقيل هي أمانات الناس والوفاء بالعهود . والقول الأخير ذكره الشيخ الطبرسي في تفسير « مجمع البيان »[٢٥] . وقال بعض المحدثين بغير ذلك حدساً منه وتخميناً ، وهو الدكتور مصطفى محمود في كتابه : « القرآن ـ محاولة لفهم عصري للقرآن »[٢٦] فذكر أن الامانة الواردة في الآية الكريمة هي « الحرية والمسؤولية » . وقد بينا في نقدنا لكتابه المذكور عجبنا من جزمه بذلك مع اختلاف المفسرين في ماهيتها واحتمالها وجوهاً هي التي ذكرناها سالفاً . وبينا أيضا أن ذلك الذي قاله ، لا يستفاد من أقوال المفسرين الذين أحصينا أقوالهم تقريباً ، ولا من مدلول اللفظة ومفهومها في اللغة ، فيكون قولا بلا دليل . وأشرنا الى أن اختلاف المفسرين في ماهيتها هذا الاختلاف جعلها من « المبهمات » ، والمبهمات القرآنية لا يجوز القطع بحقيقتها الا بدليل قطعي ثابت . وهما مما لم يتوفر للمؤلف كذلك[٢٧] .

ويهمنا من الاقوال التي أسلفنا ذكرها في ماهية « الأمانة » جميعها ، ما ذكره الشيخ الطبرسي من أن المراد بها « أمانات الناس والوفاء بالعهود »، فانه مدعوم بقول الامام الذي مر علينا من قبل حين وصى أصحابه بأداء الامانة تلك التي قبلها الانسان دون غيره من المخلوقات المحسوسة .

فالأمانة الواردة في القرآن الكريم اذاً هي بحسب تبيين الامام لها في النهج وتوضيحه للمراد منها ، أمانات الناس التي يجب أن تؤدى الى أهلها

---

(٢٤) الطبرسي : مجمع البيان ٢٢/١٧٣ طبعة بيروت .

(٢٥) ٢٢/١٧٣ طبعة بيروت .

(٢٦) ص ٢٧ . طبعة القاهرة .

(٢٧) ينظر مقالنا في نقد كتابه المذكور في مجلة « الرسالة الاسلامية » لديوان الاوقاف ببغداد : العدد ٣٣ شباط ١٩٧١ .

وأصحابها حين يريدون أداءها اليهم وهو تفسير يتلاءم مع الظاهر والمعنى المتبادر عند اطلاق اللفظة •

ولكنا قد لا نجد تبيان هذه المبهمات القرآنية في نهج البلاغة مطردا ، ولا الكشف عنها متساوقا ، فكأن ذلك التزام بما التزم به القرآن ، من ارادة هذا الابهام • ذلك أن المبهمات القرآنية كثيراً ما ترد في ثنايا القصص القرآني الذي يتوخى الموعظة ، ويقصد الفائدة ، فتبيانها ليس هو الغرض الذي رمى اليه القرآن ، بل العبرة هي المقصودة • فابهام مثل هذه الاسماء والاشياء منسجم ومقاصد القرآن وأهدافه من ايراد قصصه •

وقد يكون الكشف عن ماهية بعض هذه المبهمات أو عدد منها هو الذي يحقق الفائدة • كالذي ذكرناه آنفاً مثلا ، من تفسير الامام للفظة « الخير » الواردة في كلام موسى عليه السلام : « بالخبز » ، ونفيه أن يكون قد أكل غيره ، مع بقلة الارض • فان في ذكر ذلك اثارة للاحاسيس واستجاشه للمشاعر ، اذ يرى المرء رجلا من الصالحين ـ سيكون فيما بعد من النبيين(*) ـ يدعو الله في أن يرزقه مادة الحياة الاولية الاساسية فحسب ، وهي « الخبز » لانه لا يجده ، ولم يكن ليسأل الله غيره • فاذا عرف المرء ذلك منه ، اكبر فيه زهده وقناعته ، وحمد الله سبحانه على ما وهبه هو من آلائه ونعمه • فالكشف عن المبهم القرآني هنا يحقق قيمة دينية • ولقد ابهمت « الشجرة المحرمة » التي وردت في قصة آدم وحواء ، تلك الشجرة التي تباينت الآراء فيها وتعددت ، فنحن نقرأ في نص من نصوص نهج البلاغة تصويراً رائعاً لجزء من « قصة الخليقة » ، تلك القصة التي شغلت فكر الانسان ووجدانه

(*) ذلك أن موسى لم يكن حين وصل « مدين » نبيا ، بل صار كذلك عند عودته من خدمة الرجل الصالح الذي زوجه ابنته • وقيل عنه انه نبي الله شعيب عليه السلام •

على مر الدهور : « .. فلما مهد أرضه وأنفذ أمره(*) ، اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أول جبلته وأسكنه جنته ، وأرغد فيها أكله ، وأوعز اليه فيما نهاه عنه . وأعلمه ان في الاقدام عليه التعرض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته ، فأقدم على ما نهاه عنه ـ موافاة لسابق علمه ـ فاهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة على عباده »(٢٨) .

٢ ـ تفسير التراكيب :

ومن التفسير في نهج البلاغة ، مالا يتناول المفردات الغريبة أو المبهمة حسب ، بل انه ليتناول بالشرح والتبيين تراكيب الآي ، وما تدل عليه من معنى » . فمن مثله تفسيره لعبارة « واصطبر عليها » الواردة في قوله تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها »(٢٩) وتبيينه أن المراد منها : اصبر عليها نفسك ، وذلك ما يتجلى في قوله : « فكان يأمر أهله بالصلاة ويصبر عليها نفسه »(٣٠) ومنه تفسير عبارة « ما في الارحام » الواردة في قوله تعالى : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير »(٣١) ، بأن المراد منها :

« ما في الارحام من ذكر وانثى ، وقبيح وجميل وسخي أو بخيل وشقي أو سعيد ، ومن يكون في النار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً ... »(٣٢) .

(*) الضمير في « أرضه » و « أمره » يعود على الخالق سبحانه .

(٢٨) ١/١٧٧ من شرح محمد عبده .

(٢٩) طه : ١٣٢

(٣٠) ٢/٢٠٥ من شرح محمد عبده .

(٣١) لقمان : ٣٤

(٣٢) ٢/١٥ من شرح محمد عبده .

وهو تفسير يلحظ « العموم » الذي أنبأت عنه لفظه « ما » الموصولة في الآية الكريمة ، بنظر الاعتبار ، ويبين على وجه التفصيل ما يقع ضمن هـذا العموم من مفردات .

وقد فسر (الرد الى الله) في قوله تعالى : « .. فـان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ... » : « بالأخذ بمحكم كتابه » . والظاهر أن المراد بالمحكم هنا خصوص الآيات المحكمة ، أو كما عبر الامام محمد عبده : « نصه الصريح » ، ويقابل الآيات المتشابهات من القرآن ، تلك التي اشتبه المراد منها بغيره . ذلك أن المحكم قد يراد بـه هـذا المفهوم ، أو يراد به القرآن كله أحياناً ، باعتباره محكماً من عند الله .

كما فسر « الرد الى الرسول » في الآيـة نفسـها : « بالأخذ بسـنة رسول الله (ص) » نقرأ ذلك كله في قوله :

« واردد الى الله ورسوله ما يضلعك(*) من الخطوب ، ويشتبه عليك من الامور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب ارشادهم : « يا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » ، فالرد الى الله : الأخذ بمحكم كتابه . والرد الى الرسول: الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة »(٣٣) .

ومن تفسير التراكيب القرآنية الوارد في نهج البلاغة تفسير عبـارة « ثم يؤلف بينه » في قوله تعالى

« ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه .. »(٣٤) .

(*) ما يشتبه عليك .

(٣٣) ٣/١٠٤ .

(٣٤) النور : ٤٣ .

فقد فسرها بقوله : « ألف غمامها بعد افتراق لُمَعه ، وتباين قَزَعه »[٣٥] فهذه مثل من تفسير التراكيب والعبارات في نهج البلاغة .

٣ ـ تفسير الآي :

ونلمح في نهج البلاغة لوناً ثالثاً من ألوان التفسير ، ألا وهو « تفسير الآي » تفسيراً اجمالياً ، لا يتناول الألفاظ مفردة أو مركبة كما مر علينا من قبل ، بل انه يتناولها مجملة مجتمعة . أو بعبارة أخرى يتناولها آية آية ، لا كلمة كلمة ، أو عبارة عبارة .

ومن مثله تفسير قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً »[٣٦] .

فان الآية الكريمة مسوقة لتبيان سرعة زوال الدنيا وتقضّيها ، وانصرامها بعد تزينها وتحليها[٣٧] . ولقد قدّم نهج البلاغة بين يدي الآية « تفسيراً أدبياً » ، يبسط فيه معناها ، بأسلوب جميل بليغ ، لا يخلو من عبارة مسجوعة غير متكلفة ، أو لفظة منتقاة غير متعسفة ، أو استعارة بلاغية مستلطفة . نقرأ ذلك في احدى خطبه التي يصف فيها الحياة الدنيا الزائلة :

« .. تحلت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها[*] ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافذة[**] بائدة . أكالة غوالة[***] ، لا تعدو اذا تناهت الى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن

---

(٣٥) ١/١٧٥ من شرح محمد عبده .
(٣٦) الكهف : ٤٥ .
(٣٧) انظر في تفسير الآية : الزمخشري : الكشاف .
(*) نعمتها . (**) في الاصل : « نافذة » ، وهو تصحيف .
(***) مهلكة .

تكون كما قال الله سبحانه وتعالى : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً »(٣٨) .

أسلوبه في التفسير :

وللتفسير في نهج البلاغة اسلوبان :

(أ) اسلوب التفسير المباشر : الذي قد يتناول المفردات أو التراكيب أو الآي ، وهو الذي أشرنا اليه آنفاً .

(ب) اسلوب التفسير غير المباشر : وهو ذلك الذي يكون مندرجاً ضمن نصيحة يقدمها الامام ، أو حكمة يتفوه بها الى بعض الانام ، وذلك بيّن المعالم في النهج ، فمن مثله ما ورد في نصيحته التي يقول فيها :

« ... واني متكلم بعدة الله وحجته ، قال الله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » . وقد قلتم : ربنا الله . فاستقيموا : على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته . ثم لا تمرقوا منها ، ولا تبتدعوا فيها ، ولا تخالفوا عنها ... »(٣٩) .

ففي هذا النص تفسير غير مباشر « للاستقامة » الواردة في الآية الكريمة بيان أن المراد منها : الاستقامة على كتاب الله ومنهاجه ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ... وهو تفسير دقيق شامل لمفهوم الاستقامة وأبعادها في العقيدة الاسلامية وتوجيه السلوك الانساني .

ومثله ما ورد في احدى خطبه الواعظة من تفسير لنصر المسلم لربه ، وتبيين لمفهومه الذي أراده الاسلام ودل عليه القرآن ، فقد بين الامام أن

---

(٣٨) ١/٢١٦ من شرح محمد عبده .

(٣٩) ٢/١١٣ .

ذلك النصر لا يكون بالاماني وحدها ، بل يكون ببذل الطاقة ، وشحذ الهمة والاخذ بأسباب القوة والعدة وتدريب النفس تدريباً لا يخلو من جهد وشدة ، وانفاق المال في سبيل تحقيق الاهداف الخيرة التي قصد اليها الاسلام • نقرأ ذلك كله في هذه الموعظة : « ••• فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل ان تغلق(*) رهائنها : أسهروا عيونكم ، وأضمروا بطونكم ، واستعملوا أقدامكم وانفقوا أموالكم ، وخذوا أجسادكم ، فجددوا(**) بها على أنفسكم ، ولا تبخلوا بها عنها • فقد قال الله سبحانه : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم »(٤٠)•

فهنا أيضا تفسير غير مباشر لآية النصر والانفاق في سبيل الله ببيان مفهومهما الحقيقي ، الذي ينبغي أن يدركه المسلم ، الراجي نصر ربه ، والساعي الى الذود عن دينه •

التفسير وتاريخه وعلوم القرآن :

وفي نهج البلاغة مسائل وموضوعات تهم التفسير والمفسرين ، ويعنى بها خاصة ، أولئك الذين يكتبون في تاريخ التفسير وطبيعته في صدر الاسلام وعلوم القرآن ونشأتها في تلك الحقبة من الزمان ، ومن أظهرها ما يلي :

(١) ان النبي (ص) كان اول من فسر القرآن :

وأن الصحابة كانوا يتلقون عنه ذلك ، وأنه (ص) قد خلف كتاب الله في المسلمين ، مبيناً لهم منه ما ينبغي أن يفهموه ويعلموه ، فبين : « حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه

(*) غلق الرهن : اذا لم يمكن فكاكه في الوقت المعين المشروط •

(**) كذا وردت في النهج ، ويبدو لي أنها في الاصل « فجودوا » ، ثم حرفها الناسخ • ويدل عليه قوله بعد ذلك : « ولا تبخلوا بها عنها » •

وعزائمه ، وخاصه وعامه ، وعبره وأمثاله ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه ، مفسراً مجمله ، ومبيناً غوامضه بين مأخوذ ميثاق في علمه ، وموسع على العباد في جهله ، وبين مثبت في الكتاب فرضه ، ومعلوم في السنة نسخه ، وواجب في السنه أخذه ، ومرخص في الكتاب تركه ، وبين واجب بوقته ، وزائل في مستقبله ، ومباين بين محارمه ؛ من كبير أوعد عليه نيرانه ، أو صغير أرصد له غفرانه ، وبين مقبول في أدناه وموسع في أقصاه »[٤١] .

فهذا كله مما يقع في دائرة « علوم القرآن » و « الفقه » اللذين عني بهما المسلمون منذ أقدم العصور الاسلامية[*] .

ولقد أشرنا في كلام سابق الى أن الامام عليه السلام كان يأخذ التفسير عن النبي (ص) حين كان يسأله الناس من أعراب وغيرهم ، عن معنى لفظة أو مفهوم آية ، فيجيبهم عما يسألون ويوضح لهم ما كانوا يجهلون ، حتى استطاع أن يحفظ من ذلك الشيء الكثير . وأن يكون في مقدمة من يؤخذ عنهم تفسير كتاب الله المبين .

(٢) ان الصحابة لم يكونوا جميعاً على علم تام بمعاني القرآن : بل انهم متفاوتون فيه فهماً وعلماً . وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم أيضاً ، وتشير مصادر اسلامية اخرى الى هذه الحقيقة وتضرب لذلك الامثال[*] . ويدل النص التالي من نهج البلاغة على هذه الحقيقة التي أوردناها :

---

(٤١) ١/١٩ـ٢٠ من شرح محمد عبده .

(*) للاستزادة ، يراجع شرح ابن أبي الحديد ، ومحمد عبده وغيرهما من الشروح لمعرفة مدلول المصطلحات العلمية التي وردت في نص نهج البلاغة الذي أوردناه في أعلاه والذي يؤرخ لعلوم القرآن والفقه في عصر النبوة : كالناسخ والمنسوخ . والرخص والعزائم ... الخ .

(*) انظر مثلا الزركشي : البرهان ٢/١٧٤ ، في قصة الصحابي الذي لم يعرف كلمة (أباً) .

« .. وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله ، الكلام لـه وجهان : فكلام خاص وكلام عام ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فيحمله السامع ويوجهـه على غير معرفة بمعناه ، وما قُصد به ، وما خرج من أجله . وليس كـل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه ، حتى ان كانوا ليحبون أن يجيء الاعرابي والطارىء فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء الا سألت عنه وحفظته ، فهذه وجوه ما عليـه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم »(٤٢) .

ويتبين لنا من هذا النص ما يلي :ـ

(أ) ان الصحابة لم يكونوا جميعاً على علم تام بمعاني كتاب الله . بل ان منهم من كان يجهل شيئاً منه . وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

(ب) انهم لم يكونوا دائماً يسألون النبي (ص) عن كل ما يشكل عليهم من هذه المعاني القرآنية ، تهيباً منه (ص) واستحياء ، ولذلك فانهم كـانوا ينتهزون فرصة مجيء من يسأله (ص) ، ليجدوا في جوابه ما يكشف لهم عما يريدون .

(ج) ان الامام عليه السلام كان يسأل النبي (ص) ، ولا يجد في سـؤالـه حرجاً ، لأنه لصيق به ، لا يجد كلفة في أن يسأله ، ويعرف ما يجهل منه ، فقد ربي في حجره ، وترعرع منذ نعومة أظفاره في كنفه ، فكان له بمنزلة المربي والوالد .

٣ ـ ان في القرآن آيات نزلت في أهل البيت : عليهم السلام ، وهي تلـك التي سماها نهج البلاغة « كرائم القرآن » وهذه المسألة لا خلاف فيها بـين

---

(٤٢) ٢/٢١٦ من شرح محمد عبده .

المسلمين ، وقد صنف عدد من العلماء في ذلك ، على اختلاف « مدارسهم » الاسلامية ، كتباً . فلنقرأ هذا النص ليتجلى لنا ما نقول :

« .. فيهم كرائم القرآن ، وهم كنوز الرحمن ، ان نطقوا صدقوا وان صمتوا لم يسبقوا .. »(٤٣) .

قال الامام محمد عبده في شرحه : « الضمير لآل النبي . والكرائم جمع كريمة ، والمراد أنه قد انزلت في مدحهم آيات كريمات . والقرآن كريم كله ، وهذه كرائمه »(٤٤) .

(٤) وأن القرآن ذو ظاهر حسن معجب أنيق ، وباطن دقيق عميق وذلك جلي لكل من تأمل فيه وسبر أغوار معانيه التي لا يخلقها الرد والتكرار ، ولا تطاول الازمان والاعصار ، بل انه ليبدو لقارئه حيثما تلاه ومتى ما تأمل في فحواه ، بديع المعاني جديدها ، كأنما هو يقرأه لاول مرة .. وكلما تأمل في معانيه وعاود ذلك التأمل ، وجد نفسه مأسورا بروعتها ، مأخوذا بقوتها .. وقد أدرك البدوي ـ على تعنته روعة أسلوب القرآن ـ فسجد حين سمع آية تتلى منه ، وحين سئل عن سر سجوده قال : « سجدت لهذه الفصاحة »(*) !! .

ولقد أدرك الامام ذلك كله بذوقه وعلمه ، فعبر عنه بأبلغ بيان وأوجزه حين قال :

---

(٤٣) ٢/٥٨ .

(٤٤) المصدر نفسه .

(*) من أشهر من عني من القدامى بأسلوب القرآن ، وعده سبب الاعجاز ، الامام الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في كتابه القيم : « دلائل الاعجاز »، الذي اكد فيه على أن « نظم القرآن » هو علة هذا الاعجاز ودليله ، وبطبيعة الحال فان العلماء بعده لم يعتمدوا « النظم وحده سبباً للاعجاز ، بل وجدوا أمورا أخرى معه ، كالمعاني والاغراض والغيبيات

« ان القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه .. »[٤٥] .

فقوله : « ان القرآن ظاهره أنيق » يشير الى روعة الاسلوب القرآني وفصاحته وبلاغته ، وسمو بيانه ..

وقوله : « وباطنه عميق » ، يشير الى قوة معانيـــه ، وسمو أهدافـه ومراميـه ...

وقوله : « لا تفنى عجائبه » يشير الى هذه الروح المتجددة التي يلمسها القارىء ويستشعرها كلما قرأ القرآن ، حتى انه ليحس كأنه يقرأه لأول مرة . ويبدو لي أيضا وجه آخر في هذه العبارة الرائعة ، وهو أن القرآن غني بكل ما فيه من حقائق وقيم ومفهومات ، ولا يمكن أن يأتي زمن أو عصـــر تنمحي فيه آيات هذا الغناء ، ومعالم هذا الثراء الفكري والروحي الذي جاء به ودعا الناس اليه . فكل ذلك محتمل ومقبول .

٥ ـ تناقص فهم الكتاب في العصور المتأخرة : وذلك أمر أقره نهـــج البلاغة ، وقال به ، وهو أن فهم القرآن لم يغد في آخر الزمان ، كما كان في أوله : « فالـكتاب وأهلـه في ذلك الزمـان في النـاس وليس فيهم وعهـم ، لأن الضلالة لا توافق الهدى . وان اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا على الجماعة »[٤٦] !!.

ثم يصفهم بأنهم لا يتبعون القرآن فيما أمر به وندب اليه ، بل انهـــم يتبعون ما تهوى انفسهم ، وتمليه أهواؤهم « كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب امامهم ، فلم يبق عندهم منه الا اسمه ولا يعرفون الا خطه وزبره »[٤٧] .

وهذا في الحقيقة ينطبق على العصور المتأخرة التي ابتعد فيها المسلمون

---

(٤٥) ١/٥١ من شرح محمد عبده .
(٤٦) ٢/٤٢ـ٤٣ من شرح محمد عبده .
(٤٧) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

عن مصدر نعمتهم ووحدتهم ، وأسس حياتهم وينبوع سعادتهم ، ورافد قوتهم ، ألا وهو القرآن . فهجروه حتى لم يعودوا يعرفون من معانيه ومقاصده وهديه ، الا خطه وكتابته !!.

وهذا من غير شك لا يعني المسلمين كلهم ، وانما يتناول الكثرة الكاثرة منهم ، وهو ما يتحسسه كل مسلم اليوم .

أصول التفسير واستنباط الاحكام :

وثمة مسائل في نهج البلاغة يمكن أن تقع في دائرة أصول التفسير ، واستنباط الاحكام ، فمن مثل ما هو من أصول التفسير وقواعده ما يلي :ـ

(١) وجوب عدم حمل الكتاب على الآراء ، بل رد الآراء اليه ، وعرضها عليه ، ليتجلى خطؤها من صوابها ، وصدقها من خطلها ، وذلك يبدو في ذم الشخص الذي « قد حمل الكتاب على آرائه » ، فلم يعرضها على القرآن بل عرض القرآن عليها وحمله على وفقها(*) . وقد مرّ حديثه سابقا .

ويبدو أيضا في ذم أهل آخر الزمان الذين « كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب امامهم .. » وقد مرّ أيضا . فهذا وشبهه ممالا يستقيم والتفسير الصحيح للقرآن الكريم ؛ لأنه خطل وزيغ ، ونقص في التعامل مع كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٢) ان القرآن يفسر بعضه بعضا : وقد دل على ذلك قول الامام وهو يصفه : « كتاب الله تبصرون به ، وتنطقون به ، وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض »(٤٨) فقوله : « ينطق بعضه ببعض ، ويشهد

(*) من كلماته أيضا في هذا الموضوع قوله في القرآن : « اتهموا عليه آراءكم » ٢/١١٢ ، وانظر في مدح الرجل الذي « يعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي ٢/٣٠ .

(٤٨) ٢/٢٣ من شرح محمد عبده .

بعضه على بعض » ، يشير الى هذا المنهج الأفضل في تفسير القرآن الكريم ، اذ أن تفسير القرآن بالقرآن خير طريقة ينتهجها المفسر في الكشف عن معاني كتاب الله ، لأن الآية ـ بحسبه ـ تكون شاهد للآية ، والشاهد اذا كان كلام الله ، فهو نعم الشاهد ، دونه كل الشواهد .

قال الزركشي في « البرهان » :

« قيل : أحسن طريق(*) التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ؛ فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فانه قد بسط في آخر .. »(٤٩) .

وقد يصحب التفسير في نهج البلاغة استنباط حكم شرعي ، فيتم بذلك المراد من الآي ، ويتجلى المعنى بأحسن صوره وأتمها . فمن مثله ما ورد في وصيته الى قثم بن العباس عامله على مكة المكرمة اذ يقول فيها :

« ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا فان الله سبحانه يقول : « سواء العاكف فيه والباد » فالعاكف : المقيم ، والبادي : الذي يحج البيت من غير أهله »(٥٠) ، وقد مرّ علينا حديثه .

ففيه استنباط لحكم شرعي من الآية الكريمة السالفة الذكر : « سواء العاكف فيه والباد » ، وهو التسوية بين المقيم بمكة ، والقادم اليها من خارجها ، في حق السكن بها من غير مقابل . فهما اذا سواسية في هذا الحق الذي دلت عليه الآية ، ووجد فيه الامام عليه السلام بابا لاستنباط هذا الحكم

(*) كذا وردت في الاصل ويحتمل أن تكون « طرق » .

(٤٩) الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ١٧٥/٢ بتحقيق أبي الفضل .

(٥٠) ١٤٠/٣ .

الشرعي • وقد كشف عن وجوبه لا الندب له ، قوله في صدر النص الذي ذكرناه آنفا : « ومر أهل مكة •• » انه اذاً أمر وجوبي ، وهو أيضاً جزء مما نتبينه في هذا الاستنباط •

وبعد ،

فهذا ما تراءى لنا من معالم التفسير ومنهجه وقضاياه في نهج البلاغة ، ونرجو أن نكون قد بسطنا فيه القول نوعا ما ، وحققنا طرفا مما أحببنا ، والله المدعو للتوفيق في كل حين ، وهو الهادي الى سواء السبيل •